



سعيدة المنبهي: امرأة و قضية

أمينة بريدعة*

بادئ ذي بدء أود أن أبدي بعض الملاحظات فيما يخص أسئلة الندوة، نظرا لما تثيره من إشكالات لابد من استجلائها، و يتعلق الأمر بموضوعة مركزية تتفرع عنها عدة أسئلة: ينطلق مشروع ورقة الندوة من مسلمة، مفادها وجود قضية المرأة المغربية منذ الحقبة الاستعمارية، مما يوحي بعدة تساؤلات: التساؤل الأول: هل انوجدت قضية المرأة المغربية مع بروز الحقبة الاستعمارية؟

إن كل جواب بنعم قد يسقط في مغالطة تاريخية المؤدي إلى ارتكابها الاعتقاد بوجود تشابه في الأسباب الاجتماعية و الاقتصادية المؤدية إلى ظهور قضية المرأة كقضية اجتماعية في بلدان الغرب الرأسمالي التي عرفت نموا هائلا في التصنيع نهاية القرن 18 و بداية القرن 19، و استمرت وتيرة ذلك خاصة بعد الثورات البورجوازية الكبرى مما فجر المسألة الاجتماعية عموما و قضية المرأة كقضية اجتماعية متميزة خصوصا.

إن ولادة المسألة النسائية من رحم المجتمع الرأسمالي الغربي كانت ذات صلة بتطور التراكم الرأسمالي المؤدي إلى ضرب الملكية الصغيرة العائلية بالبوادي و فصل المنتج الصغير عن وسائل إنتاجه مما وفر اليد العاملة الضرورية للتصنيع الرأسمالي في مراحله الأولى، فكانت النساء ممن ألقي بهن في سوق العمل لينخرطن في بيع قوة عملهن و الحصول على أجر مستقل عن الزوج أو المعيل هكذا إذن تكون - كما تقول ألكسندرا كولونتاي-:

---

* أستاذة باحثة وفاعلة جمعوية – الرباط.

"المسألة النسائية بوصفها مسألة اجتماعية عينية أي ملموسة هي نتاج عصر الرأسمالية و الصراعات الطبقية المرافقة لها. فتحرير النساء من قيود الماضي الإقطاعي و تحويلهن إلى يد عاملة و سلعة في سوق العمل الرأسمالي. كان مطلبا اجتماعيا للبورجوازية الصاعدة، لقد شكلت حاجة الرأسمالية إلى يد عاملة نسائية رخيصة القاعدة الأساس لطرح مسألة تحرير المرأة في المجتمع البورجوازي" إن هذا هو المدخل الحقيقي و الصحيح لانطراح القضية النسائية بمعناها العلمي، و من ثمت انبثاق التيارات النسائية بشقيها البورجوازي و الاشتراكي. فهل يمكن عبر المقارنة نقل نفس التحليل و سحبه على واقع بلد خارج من توه من القرن 19 إلى القرن 20 ليجد نفسه تحت الحماية الاستعمارية ستنقل نمطها الرأسمالي و تفرضه عن طريق القوة (الاستيلاء على أراضي القبائل و تدمير بنياها الاجتماعية و الاقتصادية. و القضاء كذلك على الإنتاج الحرفي بالمدن) على بلد ذو بنيات تقليدية و أشكال و أنماط إنتاج ما قبل الرأسمالية، فهل ستحرر سيرورة التراكم الرأسمالي الكولونيالي بالمغرب يدا عاملة نسائية و تدمجها بمسلسل الإنتاج الرأسمالي ما يولد بداية دخول المرأة المغربية إلى ميدان الشغل و العمل؟ و هل كانت فعلا مختلف السياسات الاستعمارية التي همش الغالبية العظمى من الشعب المغربي تقوم و لو موضوعيا بفتح باب مسلسل الوعي بقضية المرأة؟ التساؤل الثاني: هل حملت مختلف القوى المنتمية للحركة الوطنية المغربية مشروعا متكاملا لطرح قضية تحرر المرأة في سياق مواجهتها، سواء في الحقبة الأولى للحماية 1912–1934 أو ما بعدها بعد انطلاق الحركة الوطنية في المدن بداية الثلاثينات. و يمكن طرح نفس السؤال بالنسبة للكتابة السياسية و الفكرية و الإعلامية بالنسبة للمرحلة برمتها أي الفترة الاستعمارية. و هل يعني، و في نفس السياق، وجود بعض الإشارات البسيطة و المتناثرة هنا و هناك ولادة لقضية المرأة كقضية اجتماعية من داخل التشكيلة الاجتماعية المغربية. و هل سيظل المؤرخون و الباحثون يكررون على غرار الخطاب الرسمي الاعتماد على تغير نمط اللباس لتذكيرها

بوجود مشروع تحرري للمرأة المغربية خلال هذه الحقبة، و نحن هنا نستعرض ما تمت الإشارة إليه في الورقة التقديمية لهذه الندوة.

و بما أننا أمام ندوة تبتغي الدقة و العلمية كإحدى أهدافها فلا بد من الخروج من هذه الخطابات غير ذات معنى أو موضوع. و من باب التذكير، فخلال فترة غير بعيدة عن حقبة الاستعمار المباشر تم تتويج النقاش حول الأحوال الشخصية بالمغرب بصدور مدونة 1958 التي يتفق الجميع أنها كانت غارقة في الرجعية، و هذا نموذج عن ما كانت تحمله النخبة من مشروع لنظام العلاقات الأسرية بما هي علاقة بين المرأة و الرجل.

و حتى لا يتم إسقاط لأفكار قد تظهر بعيدة عن السياق العام للمرحلة يكفينا المقارنة بمثال تونس و هو البلد الذي يشابه نفس أوضاعنا (نفس الدولة الحامية و نفس تاريخ الاستقلال تقريبا) حيث جاءت مدونة الأسرة (المجلة) متقدمة عن مثيلتها في المغرب فيما يخص قضية العلاقة بين المرأة و الرجل (منع واضح لتعدد الزوجات) .

عموما رغم التأثيرات البسيطة الواردة من الشرق (قاسم أمين ...) و رغم بداية الاحتكاك بالثقافة و التعليم الغربي بالنسبة لبعض أبناء النخب من الأعيان و البورجوازية التقليدية المدينية، فقد ظل المغرب متأخرا في هذا المجال نظرا لضعف بنياته الثقافية و التعليمية الحديثة و سيادة العلاقات الإقطاعية – الاستعمارية متحالف سياسي حكم المرحلة، بينما ظل خطاب الحركة الوطنية المغربية دون مستوى الاهتمام بقضية أساسية لكل مجتمع يصبو إلى التحرر و النمو. هذا، و ظلت قضية المرأة غائبة خلال حقبة الستينات رغم ظهور بعض التنظيمات السياسية أي الأحزاب و الاجتماعية اي النقابات: الاتحاد المغربي للشغل و تنظيم المرأة العاملة مثال زكية داوود. لنصل إلى سنوات السبعينات، و هنا بداية تطور منعطف جديد حيث لعبت الحركة الماركسية- اللينينية المغربية دورا كبيرا في إعادة الاعتبار لقضية المرأة خصوصا داخل الجامعة المغربية التي كانت قلعة يسارية بامتياز حيث وضعت مسألة النساء في قلب اهتماماتها الفكرية و السياسية اليومية، وخاضت نضالا فكريا

واسعا للتعريف بقضية النساء و سبل تحررهن، وقد برزت في خضم ذلك العمل العديد من المناضلات خضن إلى جانب رفاقهن نضالا قاسيا من أجل بناء الحزب الثوري المغربي و من أبرزهن الشهيد سعيدة المنبهي التي كانت عضوا في منظمة "إلى الأمام" و مناضلة في صفوف نقابة الاتحاد المغربي للشغل. إن ذلك العمل الذي قامت به الحركة الماركسية اللنينية المغربية قد ترك آثرا كبيرة في وعي أجيال عدة من الطالبات اللواتي ساهمن بقدر واسع في طرح" مسألة النساء "سواء من داخل الأحزاب الإصلاحية أو من خلال تأسيس العديد من الجمعيات النسائية التي تعنى ب "مسألة النساء".

فمن هي سعيدة المنبهي ؟ ما مسار هذه المرأة و ما قضيتها؟

ولدت سعيدة المنبهي في 16 شتنبر 1952 في مدينة مراكش، حصلت على شهادة البكالوريا سنة 1971، انتقلت بعد ذلك إلى الدراسة الجامعية في مدينة الرباط، المدينة الجامعية الرئيسية للبلاد آنذاك. في سنة 1972 نضالات قوية تعرفها الجامعة و حركة تلاميذية قوية، سنة صعود اليسار الثوري الماركسي- اللينيني و تحمله مسؤولية الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، تابعت سعيدة دراستها بشعبة الانجليزية بكلية الآداب و العلوم الإنسانية و تحملت المسؤولية داخل تعاضدية كلية الآداب باسم"الجبهة الموحدة للطلبة التقدميين"، استكملت سعيدة تكوينها بالمركز التربوي الجهوي بالرباط لتنتقل غلى التدريس بإعدادية الخوارزمي بالرباط و تنخرط مباشرة بالنقابة الوطنية للتعليم التابعة للاتحاد المغربي للشغل كمناضلة نقابية.

خلال سنة 1972 سيدشن النظام حملة قمع واسعة ضد اليسار الثوري الماركسي- اللينيني مست العديد من أطر منظمة أو ب (إلى الأمام و 23 مارس) كما تعرضت الحركة الطلابية للقمع الشرس من خلال اختطاف العديد من مناضليها و مسؤوليها إلى حدود إقدام النظام على حل الاتحاد الوطني لطلبة المغرب في 24 يناير 1973

فانخرطت سعيدة في النضال من خلال مساهمتها في المظاهرات المنددة بالقرار و دفاعا عن أوطيم و خطها النقابي الثوري .

سعيدة التي خبرت سبل النضال داخل الحركة التلاميدية بثانوية "أبو العباس السبتي" بمراكش و كمناضلة بكلية الآداب و انماؤها للاتحاد الوطني لطلبة المغرب و"الجبهة الموحدة للطلبة التقدميين" و كمناضلة نقابية بالاتحاد المغربي للشغل ستنخرط في المنظمة الماركسية – اللينينية "إلى الأمام"، و من موقع عضويتها لإحدى خلايا المنظمة و مسؤوليتها التنظيمية داخلها (كانت سعيدة مسؤولة عن خلية الرباط سلا) تميزت سعيدة المرأة المناضلة بالإقدام و الجرأة و الصمود في أحلك لحظات المواجهة و التحدي عند نقل الوثائق السرية، أو القيام بأعمال التمويه لكراء المنازل (المستعملة مقرات سرية للمنظمة) أو عند أعمال الرصد و ضبط المواعيد أو عند لزوم الحزم لمواجهة خطر دائم أو لطمانة مناضل لا زال في بداية النضال؟

اعتقلت سعيدة في 16 يناير 1976 و اقتيدت إلى معتقل "درب مولاي الشريف" (الدرب كما كانوا يسمونه) لتبدأ رحلة أخرى من حياتها النضالية في مواجهة جلاديها حيث قضت هناك 3 أشهر إلى جانب رفاقها و رفيقاتها الذين حصدتهم الحملة الثانية الكبيرة ضد منظمة "إلى الأمام" ابتداءا من يناير 1976، و كان نصيبها كبيرا من التعذيب النفسي و الجسدي كمناضلة و كامرأة داخل المعتقل السري أي الدرب، فباعتبارها امرأة عانت سعيدة من العقلية الذكورية الوحشية للجلادين الحاطة من كرامة المرأة و إنسانيتها.

سعيدة و المرأة: موقفها في المحاكمة

و هي تقف أمام القضاة في المحكمة، انتصبت سعيدة بدورها لتحاكم جلاديها في مداخلة دخلت تاريخ النضال السياسي بالبلاد عموما و النضال النسائي خصوصا. لقد صرخت في وجه رئيس المحكمة قائلة : "لقد عذبوني ووصفت بأسوغ النعوت التي أخجل أن أذكر و لو واحدة منها، كم هو معيب و منحط هذا

السلوك، بمجرد التفكير بوجود رجال يعاملون امرأة بهذه الطريقة يجعلني اشعر بقشعريرة و يثير استنكاري و غضبي، فكيف لا أكون مسيسة؟ كيف لا أناضل لتحسين وضعية المرأة؟ اهتزت المحكمة بالتصفيقات عندما أعلنت سعيدة عن تنديدها بأوضاع الاضطهاد التي تتعرض لها المرأة المغربية، و بذلك تكون أول امرأة فعلت ذلك في بلادنا و أمام قضاتها.

قراءات في كتابات سعيدة

سعيدة التي لم يمهلها الموت و استشهدت في مقتبل العمر 24 سنة، تركت لنا قصائدها و رسائلها إلى عائلتها و بحثا أو مقال لم يكتب له أن يته و من خلالها ندرك أفكارها و قيمها النضالية كامرأة رفعت صوتها ضد الاضطهاد المزدوج للنساء، و من أجل تحررهن تحررا كاملا و شاملا و بمقدمات منهجية تاريخية و اعتمادا على نظرة ثاقبة مسلحة بفكر ثوري تناولت الكتابة في موضوع شائك يتعلق بمن يطلق عليهن "النساء العاهرات" فقدمت سعيدة نظرتها للتاريخ قائلة "لم يعد التاريخ تاريخا للأسر الحاكمة و لا يحق للمؤرخين المزيفين أن يكتبوا تاريخ شعب، فالناس هم من يصنعون التاريخ بدمائهم و و التاريخ يسجل ذلك الإرهاب الذي يزرعه النظام الرجعي في صفوف الشعب عن طريق أجهزته القمعية ..." بالنسبة لسعيدة " فالانحلال و الفساد في مجتمع ما تولده طبيعة هذا المجتمع نفسه، المجتمع الرأسمالي باعتباره نظام استغلال و لا عدالة اجتماعية " تقول سعيدة " من المؤكد أنه في مجتمع طبقي و في ظل نظام مفروض على الجماهير من طرف الاستعمار و الامبريالية من أجل الحفاظ على مصالحهما الاقتصادية و السياسية، فالعهارة، الرذيلة، الرشوة هي مظاهر ملازمة لهذا النظام، إنها مظاهر يتم نشرها و تشجيعها، إن الشعب في ظل نظام لا وطني يتعرض للفقر الأكثر قتامة ".

في نظر سعيدة، المرأة المغربية تعاني من استغلال مزدوج حيث تقول "في هذا المناخ الذي يمكن وصفه بالفاشي. لا يمكن لنا أن ننسى أن الاستغلال المزدوج الذي

تتعرض له المرأة في بلد متخلف تابع و هذا الوضع الخاص للمرأة المغربية التي تتعرض لمظهرين من الاستغلال: استغلال من طرف النظام مثلها مثل الرجل واستغلال من طرف هذا الرجل نفسه، هو ظاهرة اجتماعية متولدة تلازميا و في نفس الوقت من طبيعة البنيات الاقتصادية – السياسية و الاجتماعية القائمة ، فمن الطبيعي أن تعتبر المرأة في ظل نظام بطريركي مجرد كائن تابع ليس بإمكانه امتلاك لا الأرض و لا اختيار الزوج أو الانفصال عنه، ليس لها إلا وضعية القاصر.."

من خلال مقالها حول "العاهرات بالمغرب، مقال غير مكتمل" الذي كتبته داخل السجن سنة 1977 و هي تتحدث عن النساء العاهرات، أنها لم تنجز بحثها إلا بعد أن انبنت بينها و بين أولائك النساء ضحايا المجتمع الطبقي ثقة متبادلة، و في هذا الصدد تقول سعيدة: "بيني و بين أولائك النساء حصل تعاطف كبير" و في مكان آخر على هامش المقال كتبت تقول: "بعض الناس حين يتكلمون عن عاهرة يقتلونها بنبرة احتقار، نحن نعطي لهؤلاء النساء ضحايا الاستغلال كل الاحترام الذي يمكن أن يستحقنه".

في نظر سعيدة هؤلاء النساء كن مرغمات على بيع أجسادهن "في ظل نظام لا يهيئ للشباب سوى طريق المخدرات و الكحول أو طريق السجن و التعذيب لؤلائك الذين اختاروا النضال ضده" و لتكريس الاستعباد و الاستيلاب ترى سعيدة أن "الاستعمال الديماغوجي للدين يسمح بتعزيز الاستغلال و الاستيلاب و الاستعباد بالنسبة للمرأة". أدركت سعيدة جيدا الطبيعة الطبقية للعهارة من خلال دراستها للفئات الثلاث التي تنتمي لهن النساء اللواتي يمتهنها (اللمبن برولتاريا – البورجوازية الصغيرة ، الفئات"الراقية") ثلاث فئات من العاهرات لثلاث أنواع من الطلب في سوق المتاجرة بجسد المرأة.

و في محاولة لسير غور وعيهن الطبقي و الجنسي (النوع) و قفت سعيدة على ذلك الوعي الحسي لديهن الذي يظل ذا افق مستلب، فهن يعرفن من هم أعداؤهن و يعرفن أن الدولة متعفنة و غير عادلة لكنهن لا يعرفن ما هي الحلول نحتميات بالزمن،

معتقدات أن هذا الأخير، خارج أي عمل ملموس كفيل بتغيير واقعهن. و خلصت سعيدة إلى القول أن كل هؤلاء النساء و المرأة بشكل عام لا يمكنهن أن يعرفن تغييرا لوضعية اسغلالهن المزدوج إلا إذا اكتسبن وعيا طبقيا و عملن من أجل تغيير جذري للمجتمع و من أجل بناء مجتمع اشتراكي يمنح المرأة حقوقها الفعلية أي المساوات التامة مع الرجل و دور فعلي في الإنتاج و مساهمة حقيقية في الحياة السياسية لبلدها و إن تحرير المجتمع كله هو مهمة المرأة و الرجل على حد سواء و على رأس هذا المجتمع الفلاحون و العمال.

سعيدة و الشعر

كتبت سعيدة العديد من النصوص الشعرية تزيد عن العشرات باللغة الفرنسية ترجمها إلى اللغة العربية الشاعر عبد اللطيف اللعبي و هذا واحد من تلك النصوص الشعرية يرجع تاريخه إلى يناير 1977:

سبق لي أن شرحت لك
ياصغيرتي
ليس كما شرحت لك تلك المعلمة
أنهم يضعون في السجن اللصوص فقط
إنهم يسجنون أيضا الذين يرفضون
الرشوة
السرقة و العهارة
أولئك الذين يصرخون
كي تصبح الأرض
لمن يحرثها أولائك الذين يصهرون الفولاذ
ليصنعوا منه السكة .. و المحراث الذي سيشق الأرض
حيث يزرع الحب

لإطعام كل الأطفال
لقد التقيت أيضا
بإنسانة
طاعنة في السن
أنهكها البؤس
هذه المرأة الأمية
ذات اليدين الشاحبتين الموشومتين
كانت تغزل الصوف
تبصق حقدها الدفين
في وجه من ارغموها
على هجر "براكتها"
التي اشترتها بدمها
في حي "مبروك" القصديري
كانت تقاسيمها محفورة بالغضب
لأنهم حكموا عليها بسنة
كانت مجبرة على قضائها في السجن
دون أن تدرك السبب.

المعركة الأخيرة لسعيدة

انتهت المحاكمة الصورية لسعيدة و رفاقها و رفيقاتها بأن أصدرت المحكمة في حقها بالسجن 5 سنوات إضافة إلى سنتين بتهمة الإساءة إلى القضاء. كانت لحظة صدور الأحكام على سعيدة و رفاقها و رفيقاتها لحظة مؤثرة و ثورية بامتياز تخترقها زغاريد النساء و وقوف كل القاعة في تحد حازم للأحكام الجائرة و لمن حبكوها أي النظام و أزلامه. نقلت سعيدة مع رفيقاتها إلى سجن عين برجة (سجن مدني بالدار

البيضاء) و لم تكن سعيدة تعلم أنها عاشت آخر لقاء لها مع رفاقها، لقد كانت لحظة وداع قبل الأوان.

في 8 نونبر ستدخل سعيدة مع رفاقها في السجن المركزي بالقنيطرة في إضراب عن الطعام لانتزاع مجموعة من المطالب تتمثل في تحسين الأوضاع المادية و الصحية للمعتقلين من تغذية و علاج و زيارة مباشرة و فسحة و حيازة المذياع و الجرائد و المتب و متابعة التعليم ...دام الإضراب عن الطعام 45 يوما و كانت سعيدة تخوض معركتها الأخيرة، و بدأت الأحوال الصحية للمعتقلين السياسيين تسوء يوما بعد يوم نتيجة الإهمال و اللامبالاة و صمت النظام و أحزابه. نقلت سعيدة و اثنان من رفيقاتها إلى مستشفى ابن رشد بالدار البيضاء بعد أن ساءت حالتها الصحية، و في يوم 1 دجنبر 1977 و بعد 33 يوما من بداية الإضراب نقلت سعيدة إلى غرفة كبيرة و هي في حالة غيبوبة (كوما) حيث ظلت ملقاة على الأرض تحت مراقبة أمنية و ليست طبية، فكان رجال السيمي يراقبون نبضاتها و يحملون أدواتهم الطبية رشاشات سوداء مستعدة للإطلاق، أما الأطباء و كأن الأرض ابتلعتهم "فلا قسم أبوقراط نفع ولا ضوء البذلة البيضاء سطع و لا تدخل الهيئة الطبية وقع" كانت سعيدة تعيش لحظاتها فاقدة للوعي.

وفي يوم 11 دجنبر الساعة الخامسة صباحا توقف قلب سعيدة عن الخفقان وسط إهمال طبي إجرامي، و دفنت سعيدة في مقبرة الشهداء بباب دكالة، و كان الحضور حاشدا و كانت الجنازة مهيبة، و في طريقها إلى متواها الأخير أطلقت حناجر المودعين و المودعات "سعيدة الشهيدة في التاريخ خالدة".

بعد 34 سنة من استشهادها لا زالت أجيال المناضلين و المناضلات تردد اسمها في كل مواقع النضال، فقد أصبحت سعيدة رمزا و نموذجا لنضال النساء و مفجرا لجداول متفرعة تصب باستمرار في نهر النضال النسائي المستمر و حركة "العيالات جايات" إحدى هذه الجداول التي أعلنت ميلادها في ظروف تاريخية خاصة مؤكدة

أن طريق النضال النسائي ما زال مستمرا. تلك حكاية امرأة اسمها سعيدة التي عانقت النضال و الشعر و الثورة حتى الشهادة.

تمت الاستعانة في العرض بالمراجع التالية :

- Morçeaux choisis du livre de répression(témoignage)

- Khadija Menabhi (édition Multicom)

- Saida Menabhi Poème- Ecrits- lettres de prison Edition feed – Back

– فيلم سيرة ذاتية عن سعيدة المنبهي: "سعيدة النجمة الحمراء "من إنجاز حركة "لعيالات جايات".